

د. رعوف عباس في استراحة المحارب الأخيرة

السبت 5 يوليو 2008

عزمي عبد الوهاب



قبيل أيام من رحيله كان د. رعوف عباس حامد (1939-2008) يقاوم نوعين من السرطان، ذلك الوحش الذي أنشبت مخالبه في جسده العملاق، ثم استسلم له في النهاية، لكنه لم يستسلم أبدا في مقاومته ضد سرطان آخر، يحاول أن ينهش هذا الوطن، ففي الجامعة الأمريكية بالقاهرة، كان اليهودي الأمريكي جونل بينين، رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط، يسعى لرسم خريطة جديدة لذلك القسم باستضافة أساتذة إسرائيليين في الجامعة الأمريكية، فقاد د. عباس حملة شرسة ضده، انتهت باتهام الأمريكي اليهودي له علي صفحات الجرائد المصرية بـ معاداة السامية. انزعج د. رعوف عباس المقاوم الصلد من التهمة، وربما سببت له جرحا غائرا، هو الذي كان يحشد كل دفاعاته لمقاومة سرطان الجسد، وكان علي المؤرخ الكبير ألا ينزعج، لأن تهمة معاداة السامية التي تم اختزالها في رفض المشروع الصهيوني، تعد شرفا، وإضافة إلي معاركه الطويلة في الداخل والخارج ضد الفساد وتزييف التاريخ، الذي أخذ في مناهضته بريادته مدرسة التاريخ الاجتماعي، منذ أن قدم رسالتيه العلميتين عن الحركة العمالية المصرية من 1899 إلي 1952، والملكيات الزراعية الكبيرة في مصر في القرن التاسع عشر.

خاض رعوف عباس أولي معاركه الوطنية حين عمل عقب تخرجه في الجامعة بإحدى شركات كفر الزيات مراجعا للحسابات، وهناك رأي كيف أن الفساد الإداري وغياب الرقابة الشعبية كانا بمثابة السوس الذي ينخر في عظام القطاع العام، وحسنت التجربة التي عاشها بين العمال اختياره لموضوع رسالة الماجستير، فقد لاحظ أن أولئك العمال الذين نجحوا في إسقاط اللجنة النقابية وراءهم خبرة نقابية لم تأت من فراغ، فراح يبحث عن كتاب في تاريخ الحركة النقابية في مصر، لم يجد سوي كتابات لا تغني ولا تسمن من جوع، فعقد العزم علي دراسة الحركة العمالية منذ نشأتها حتي قيام الثورة. ظلت المعارك تلازم د. رعوف عباس طوال حياته، بداية من معركته حين عين معيدا، وانتهاء بالمعركة التي أشرنا إليها مع بينين، ففي اليابان أثناء عمله زميلا زائرا في معهد اقتصاديات الدول النامية، لفت نظره خبر صغير نشر في جريدة جابان تايمز يفيد بأن مؤسسة اليابان تلقت طلبا من جامعة تل أبيب لإقامة قسم للغة اليابانية بتمويل كامل من المؤسسة، فكتب عندئذ مقالا بعنوان مصلحة اليابان مع من؟ انتهى فيه إلي أن مصلحة اليابان مع العرب.

ولم يتوقف د. رعوف عباس إلا حين التقى رئيس مؤسسة اليابان ليقول له إن إنشاء قسم ثان للغة اليابانية بإسرائيل لن يخدم المصالح الحيوية للشعب الياباني التي تتطلب مد جسور التفاهم مع الشعوب العربية، وأن الثقافة هي المجال الأرحب لفهم الشعوب لبعضها البعض، وأن إنشاء القسم المطلوب بتل أبيب لن يفيد سوي حفنة من طلاب إسرائيل، بينما لو أنشئ القسم بالقاهرة لكان مفتوحا أمام جميع الطلاب العرب، ولأصبح نافذة يطل منها العرب علي الثقافة اليابانية، وبعد شهر من المساعي اتخذت مؤسسة اليابان قرارا بإنشاء قسم اللغة اليابانية وآدابها في كلية الآداب جامعة القاهرة.

كان رعوف عباس - كما يصف نفسه - يتخذ لنفسه مكانا بين الأغلبية الصامتة، ولم يقدر له الاحتكاك بالسلطة إلا في عهد السادات، فبعد عودته من قطر عام 1978 تلقى مكالمة تليفونية من رئاسة الجمهورية تخبره بأنه مكلف بحضور اجتماع سري، وفي معهد الدراسات الاشتراكية بمصر الجديدة وجد حشدا من أساتذة الجامعات في تخصصات مختلفة، وتم شحن هؤلاء في سيارة متجهة إلي الإسماعيلية، ليلتقوا بالرئيس السادات، وكان يرمي إلي تأسيس معهد الدراسات الوطنية، لتنظيم دورات تثقيفية للشباب، بدلا من الكلام الحجوري الذي يتعلمونه في مركز الدراسات الاشتراكية.

وكما يقول د. رعوف عباس فقد نجا من ورطة التعاون مع نظام السادات، ليوافه مأزقا آخر عندما استدعاه عميد الكلية ليخبره بأن السيدة جيهان السادات تريد أن تراه، لاستشارته في مسألة تاريخية، وكان الأمر يتصل بابنتها نهي السادات التي تدرس الماجستير في تاريخ الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية، وأنها تنتظر منه أن يحدد موعدا يزور فيه بيت الرئيس. رفض رعوف عباس الأمر إلي أن فوجئ بنهي السادات في مكتب العميد، الذي أخبره بأن اختيارها لك يعود إلي أنك الوحيد الذي له كتابات بالإنجليزية، وأنها في حاجة إلي من يكتب لها البحث وهو ما رفضه رعوف عباس، رغم أنه كان ينتظر الترقية إلي درجة الأستاذية، وكانت البلاد مقبلة علي أجواء اعتقالات سبتمبر.

وهكذا كان رءوف عباس مقاتلا شرسا طوال مسيرته التي توازي تحولات عديدة في المجتمع المصري، كان شاهدا عليها بعصاميته التي بدأت في أحد بيوت عمال السكك الحديدية وانتهت به صاحب مدرسة في التاريخ الاجتماعي.

<http://arabi.ahram.org.eg/arabi/Ahram/2008/7/5/CULT1.HTM>